المدح والفضائل النفسية :

وتنظم معاني المدح بوجه عام فكرتان اساسيتان . الاولى ان المدح لا يكون الا بالفضائل النفسية . وهي اربع ... العقل والشجاعة والعدل والعفة الثانية ان معيار هذه الفضائل النفسية المبدأ القائل ان الفضيلة وسط بين رذيلتين يقول قدامة (لما كانت فضائل الناس من حيث انهم ناس لا من طريق ماهم مشتركون فيه مع سائر الحيوان ... انما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة . كان القاصد لمدح الرجال بهذه الاربع الخصال مصيبا . والمادح بغيرها مخطئا)(٣٥) .

وقد يبدو للدارس ان حصر معاني المدح بهذه الفضائل انما هو تقييد شديد لا مسوغ له . كما انه لايطابق الواقع الذي كان عليه شعر المدح . ولذلك فقد عمد قدامة الى مايبدو انه توسيع لنطاق هذه الفضائل عن طريق (الاشتقاق) و (التركيب) . فقد اشتق من العفة فضيلة القناعة وقلة الشره وطهارة الازار ومن الشجاعة فضيلة الحماية والدفاع والاخذ بالثأر والنكاية بالاعداء والمهابة وقتل الاقران والسير في المهالك .

واشتق من العدل السماحة والتبرع واجابة السائل وقرى الاضياف .
واشتق من العدل ثقابة المعرفة والحياء والبيان والسياسة . والكفاية والصدع بالحجة والعلم والحلم عن سفاهة الجهلة(٣٦)

ويتولد عن طريق الجمع بين العقل والشجاعة فضيلة الصبر على الملمات والوفاء بالابعاد . وينتج عن تركيب العقل والسخاء فضيلة انجاز الوعد وما اشبه . وينتج عن التركيب بين العقل والعفة فضيلة الرغبة عن مسألة الاقتصاد على ادنى معيشة . ويتولد عن تركيب الشجاعة مع السخاء الاتلاف الاخلاف . ويتولد عن الجمع بين الشجاعة والعفة انكار الفواحش . وعن الجمع بين السخاء والعفة الاسعاف بالقوت والايثار على النفس وما شاكل ذلك « وجميع هذه التراكيب قد ذكرها الشعراء في اشعارهم »(٣٧)

---

(٣٥) نقد الشعر ٥٩
(٣٦) المصدر السابق ٦١
(٣٧) المصدر السابق ٦١ ـ ٦٢

ومع ان قدامة ـ كما يبدو واضحا ـ اجهد نفسه في حصر معاني المدح اولا بالفضائل الاربع .. فقد اجهدها أكثر بفكرة الاشتقاق او الاقسام والتركيب . ومع ذلك فقد وجد من يرى ان قدامة لم يضطرب في علاج موضوعه قدر اضطرابه في بحث معاني المديح « وسبب هذا الاضطراب انه حدد في اول كلامه الاساس الذي ينبغي ان يبنى عليه المديح وهو الفضائل الاربع . وحين رأى ان من المجيدين من لم يستوعبها جوز له المديح ببعضها ، اذا غالى واستوعب صفات هذا البعض . واذا وجد فيهم من لم يعرض لها سوغ له مافعل بالميل الى الاجمال والرغبة عن الاطالة . ثم يعود بعد ذلك فيقرر ان لكل مقام مقالا . وان لكل جنس من الممدوحين معاني خاصة به فلا يمدح جنس بما يكون لغيره »(٣٨)

وهذه ملاحظة صحيحة . لان قدامة قسم معاني المديح « بحسب الممدوحين من اصناف الناس في الارتفاع والاتضاع وضروب الصناعات والتبدي والتحضرُ »(٣٩) وهذا يقتضي ان تكون بعض معاني المدح التي المحنا اليها سابقا مناسبة لبعض الناس بحسب مراكزهم الاجتماعية . فالناس ـ كما يرى قدامة ـ مراتب . ويأتي الملوك في المقدمة يليهم ذوو الصناعات كالوزراء والكتاب والقواد ثم السوقة (من البدو والحضر) وهم قسمان :

المتعيشون بأصناف الحرف وضروب المكاسب ... والصعاليك والمتلصصه ومن جرى مجراهم(٤٠)

ولكل من هؤلاء معان يختص بها . فمدح الملوك ـ على سبيل المثال ـ يكون بالشجاعة والسخاء .. ومدح الوزير والكاتب بالروية والفكر وحسن التدبير والسياسة . ويمدح الكسبة من الناس « بما يضاهي الفضائل النفسانية التي قدمنا ذكرها خاليا من مثل مدح الملوك . ومن قدمنا ذكره من الوزراء والكتاب والقواد »(٤١) مثل التواد والتعاون والترابط بين الافراد والخلق الحسن والحزم والصبر ويمدح الصعاليك والمتلصصه بالاقدام والفتك والجد .. الخ .

وكل هذه الصفات . لو تأملناها . فضائل انسانية . بمعنى انها تصف الانسان كأنسان . وهي ـ كذلك ـ فضائل معنوية او نفسية بمعنى انها لاتصف الانسان بما

---

(٣٨) قدامة بن جعفر والنقد الادبي ٣٢٨

(٣٩) نقد الشعر ٧٨

(٤٠) المصدر السابق ٧٨ وما بعدها

(٤١) المصدر السابق ٨٤

فيه من خصال جسمية مثلاً كالجمال. وهي أخيراً صفات شخصية بمعنى انها صفات نابعة من سلوك الشخص الممدوح نفسه .

وليست موروثة من نسب او حسب . ولذلك فالانسان مسؤول عنها ومثاب عليها ان خيرا فخير وان شرا فشر (٤٢)

والدارسون يربطون بين حديث قدامة عن الفضائل النفسية وبين الاثر الارسطي عنده . يقول الاستاذ طه احمد ابراهيم « اظهر اثر لكتاب ارسطو (الخطابة) هو في حديث قدامة عن الفضائل النفسية)(٤٣)

ويبدو د . ابراهيم سلامة اكثر وضوحا ودقة بقوله « ان قدامة لابد ان يكون قد قرأ الفصل السادس من الكتاب الاول من الخطابة . وهو بعنوان (في الخير والشريف والنافع) ... وفي الفقرة التاسعة يعود ارسطو فيذكر أمهات الفضائل التي ذكرها قدامة فيقول .. العدالة والشجاعة والعفة والسخاء والعظمة وغيرها من الاستعدادات [illegible] التي من طبيعتها . فضائل نفسية لها ما للسعادة من الاثر النفسي »(٤٤)

ويقول « وتكلم ارسطو بعد ذلك عن الصحة والجمال وغيرهما من الفضائل الجسمية الناشئة عنهما . فيترك قدامة هذه الفضائل .. ولا يعني بها . وانما يشير اليها اشارة عابرة »(٤٥)

ويقول د . احسان عباس « وجد (قدامة) ان افلاطون يجعل الفضائل الكبرى اربعا . العقل والشجاعة والعدل والعفة .. الخ »(٤٦) .

ويبدو من النصوص التي اقتبسها د . سلامة ان ارسطو لم يذكر العقل ضمن الفضائل النفسية . والسبب ـ كما يرى ـ ان العقل مفروض ابتداء .. لان من تصدر عنه هذه الامهات من الفضائل هو متصف بالعقل طبعاً)(٤٧) .

---

(٤٢) د . جابر عصفور الشعر ص ٩٤ وما بعدها .

(٤٣) تاريخ النقد الادبي عند العرب ١٣٦ وانظر ايضا قدامة بن جعفر والنقد الادبي ٣١٨ وما بعدها .

(٤٤) بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ١٦٤ وما بعدها .

(٤٥) المصدر السابق ١٦٥

(٤٦) تاريخ النقد الادبي عند العرب ١٩٦

(٤٧) بلاغة ارسطو ١٩٥

ولا نظن ان المدح بالفضائل النفسية تقف وحدها شاهداً وبرهاناً على تأثر قدامة بأرسطو. فالشعر العربي يمدح الرجال بالسخاء والشجاعة والعفة وغيرها من الفضائل النفسية الاخرى. الامر الذي يدل على ان العربي يميل الى التحلي بهذه الصفات دون الصفات الجسمية. وكان قدامة ـ بلاشك ـ يستقري الشعر العربي ويستنبط منه القواعد التي تحكم شعر المدح وغيره من اغراض، زد على ذلك ان المدح بالفضائل النفسية قريب الصلة بالمفهوم الاسلامي للفضيل والموقف من الانسان بصفته مسؤولاً عن نفسه وما يصدر عنها.

فاذا كان قدامة متأثراً في هذه النقطة بارسطو. فلماذا انصرف عن الاشارة الى امكانية المدح بالمحاسن الجسمية وقد اشار اليها ارسطو نفسه؟

وقد ارتبط حديث قدامة عن الفضائل النفسية بمبدأ ارسطو طاليس يرى في الفضيلة وسطاً بين رذيلتين(٤٨). وهو مبدأ اعتمده قدامة بن جعفر صراحة(٤٩) فالشجاعة عنده وسط بين التهور والجبن. والكرم وسط بين رذيلة الاسراف ورذيلة التقتير وقس على ذلك.

وجريا على هذا المبدأ كان لزاما ان نرى الشعراء يميلون الى الاقتصار على الطرف الوسط. اي الاعتدال في المعاني لا المبالغة فيها. ويظهر واقع الحال مخالفا لهذا. فالمعاني اقرب الى الغلو والمبالغة. وهنا يبدو قدامة على خلاف ما يضعه من مبادىء في نظم الشعر او نقده. فقد وضع قواعد حصر المعاني في الشعر كما مر بنا. ووجد في الشعر مالايتفق مع القواعد التي حاول ان يحصر المعاني ولذلك اضطر الى التسويغ تارة والى نقض القاعدة او توسيع نطاقها تارة اخرى. وقد مر بنا كيف ان معاني المدح لايمكن حصرها بأربع فضائل، الامر الذي اضطره الى ان يركب ويشتق.

وكان قدامة قد جعل المبالغة من نعوت المعاني(٥٠) ورآها افضل من الاقتصار على الحد الوسط ((ان الغلو عندي اجود المذهبين (المذهب الثاني هو الحد الوسط). وهو مذهب اليه اهل الفهم بالشعر والشعراء قديما ويضيف قائلا ((لانهم (فلاسفة اليونان) وغيرهم ـ ممن ذهب الى الغلو ـ انما ارادوا به المبالغة والغلو

---

(٤٨) المصدر السابق ١٦٢ وانظر د. احسان عباس تاريخ النقد الادبي عند العرب ١٩٨.

(٤٩) نقد الشعر ٦٢

(٥٠) المصدر السابق ١٣٩

بما يخرج عن الموجود ويدخل في باب المعدوم فانما يريد به المثل وبلوغ النهاية في النعت . وهذا احسن من المذهب الاخر(٥١) .

ولقدامة تعريفان للغلو . ففي موضع من كتابه يعرفه بأنه الوصف الذي يخرج عن الموجود ويدخل في باب المعدوم(٥٢) . وفي موضع آخر يقول انه ((تجاوز في نعت ماللشيء ان يكون علية . وليس خارجا عن طباعه . الى مالا يجوز ان يقع))(٥٣) .

وقد يبدو ان في هذين التعريفين مايشيء بالتناقض . فمن الغلو ـ كما يتضح من التعريف الاول ـ مالايمكن ان يقع ابدا . مثل قول الشاعر

يـــامين الله عـــش ابـــدا
دم عـلـي الايـام والـزمـن

لان (العيش ابدا) مستحيل . ومن الغلو ايضا ـ الافراط في الصفة . او ـ تجاوز حدود المعقول . لكنه لايخرج به الى المعدوم ـ قول الشاعر

تظل تحفر عنه ان ضربت به
بعد الذراعين والساقين والهادي

اذ ليس خارجا عن طباع السيف ان يقطع الذراعين والساقين والعنق . وان يغوص بعد ذلك في الارض .
ومثله قول الشاعر

فلولا الريح أسمع من بحجر
صليل البيض تقرع بالذكور

اذ ليس يخرج من طباع اهل حجر ان يسمعوا الاصوات من بعيد . وليس خارجا ايضا « عن طباع البيض ان تصل ويشتد طنينها بقرع السيوف اياها .... الخ »(٥٤)

---

(٥١) المصدر السابق ٦٤ ، ٥٥ ، ٥٦
(٥٢) المصدر السابق ٥٦
(٥٣) المصدر السابق ٢٠٩
(٥٤) المصدر السابق ٢٠٩

والمعيار في مثل هذه المعاني ان ماهو ممكن ولكن متجاوز في الصفة ان يقبل دخول (كاد) عليه . فتقول مثلا كاد السيف يحفر الارض لقوته . اوكاد اهل حجر ان يسمعوا صليل السويف لشدتها . ولكنه يمتنع في حالة ابي نؤاس . اذ لا نستطيع ان نقول كاد امين الله ان يعيش ابداً(٥٥)

ويعلق د . احسان عباس على هذا بالقول ((هذه قضية تتطلب توضيحاً فقد اقر قدامة ان الغلو يخرج عن باب الموجود ويدخل في باب المعدوم واجاز ذلك على سبيل المثل وبلوغ النهاية . الا انه وان كان معدوماً . فان وقوعه امر ممكن . اما الممتنع فان وقوعه امر غير ممكن))(٥٦) .

ولعل في تفسير قدامة لمثل هذه المعاني من انها تخرج مخرج المثل ولا يراد بها المعنى الحقيقي مايقنع . ينطبق هذا على المعنى الذي يخرج الى حد المعدوم . او المعنى الذي يرتفع الى اقصى غاية .

ايكون موقفه هذا من الغلو مناسباً لطبيعة الشعر بوصفه كلاماً مخيلاً لا يقصد به عرض الحقائق الصحيحة . وانما يراد به التأثير في العواطف ؟(٥٧) يجوز ومع ذلك فان قدامة لم يذكر الخيال والتخييل وكل ماله صلة بالشعر وطبيعته التخييلية على الرغم من ان هذه الفكرة تقع في صميم الفكرة الارسطية عن الشعر . وعلى الرغم من ان الذين تأثروا بأرسطو التفتوا الى هذا واشاروا اليه مثل حازم القرطاجني كما سنرى .

وكان قدامة ـ كما يرى د . احسان عباس ـ يستوحي فكرة وردت عند ارسطو مفادها ان ما ((يتصل بالصدق الشعري فان المستحيل المحتمل مفضل على شيء غير محتمل الا انه ممكن)) . واذا اخذنا بقانون الاحتمال الارسطي وجدنا ان بعض انواع الغلو غير محتملة لكنها ممكنة . وهي مما يؤثر ارسطو ابعادها عن الشعر . وان بعض ماسماه قدامة (الممتنع) يقع تحت اسم المستحيل . وان ارسطو يفضله على النوع السابق . ويضيف د . احسان ((هل نقول هنا ان قدامة لم يستطع ان يفهم ماعناه الفيلسوف))(٥٨)

---

(٥٥) المصدر السابق

(٥٦) تاريخ النقد الادبي عند العرب ٢٠٠

(٥٧) قدامة بن جعفر والنقد الادبي ٢٣٨ ـ ٢٣٩

(٥٨) تاريخ النقد الادبي عند العرب ٢٠٠ ـ ٢٠١